العداء التركي والفارسي للعرب

مواجهة داخل المنظومة الدينية

اســتمرارًا لمنهجية "فهم التاريخ" وضبط الأحداث فإن تفكيك البنية السلوكية لبعض الأعراق التي تميّزت عن غيرها بعقيدة استعلائية وعُقدة عِرقية وتاريخية تجاه كل ما هو عربي يحتاج لكثيرٍ من البحث والفهم، ولعل تناول الأتراك والفرس مَرَدُّه إلى الاحتكاكات المتكررة لهذين العِرقَين مع المكون العربـي، الذي تحوّل تاريخًا وحاضرًا إلى نقطة ثابتة في البناء الإســتراتيجي للأتراك والفرس، بل هناك تنافُس شَرِس على اقتسام النفوذ بين الطرفين على مستوى رقعة الشطرنج العربية.

في هــذا الســياق مخطئ مــن يظن أن المواجهات الفارســية التركيــة (العثمانية) كانت مرجعيتهــا ودوافعها دينية أو عِرقيــة، وإنما كان الصدام دائمًا محكومًا بحسابات سياسية وأطماع توسّــعية للطرفيــن، ولذلــك نجــد أن الأتــراك منصهرون في النســيج الاجتماعي والسياســي الإيراني، والعكس صحيح، أمــا الصراع مع العرب فقد اتخذ بُعــدًا عِرقيًّا وتحديًا تاريخيًّا انعكس حتى على عملية فهم النص الديني والتأويلات الفقهية، على اعتبار أن الفرس والترك يستشــعرون عُقدة النقص العَقَدي، بالنظر إلــى أن العرب هم الورثة الشرعيون لرسالة الإسلام وهَدْي خير الأنام.

> **انتبه الغرب إلى أن الأتراك والفرس لا يشكلون كتلة سلوكية أو دينية متجانسة مع العرب**

لقد انتبه الغــرب إلى أن الأتراك والفرس لا يشــكلون كتلة ســلوكية أو دينية متجانســة مع العــرب، واستشــعر المُنْظــرون الغربيــون تلك الشــعلة من الحقد الدفين تجاه كل ما هو عربي، فراهَنوا عليهــم من أجل وضع اليــد على خيرات المنطقة العربية من خلال تفاهمات فارسية-تركية برعاية غربية، ولذلك نجدهم يصنفون كلًّا من إيران وتركيا في خانة المحاور الجيوسياســية التي يجب تقويتهــا ودعمها ضد التصدعات العرقية الداخلية التي قد تؤدي إلى انفجارها من الداخل.

إن جِدَّة التمايُز الســلوكي بين العرب من جهة، والفرس والترك من جهة أخرى، يقابله ذلك التماهي الكبيــر في البنية الســلوكية (التزام ديني رخو، الرغبة في التوســع، الاســتعلاء العِرقي، المصلحــة مقدَّمة على المبــدأ، النص الديني في خدمة الأجندة السياســية..)، ولعل هذا التماهي يجد أوَّل آثاره في العصر العباسي، حين استشــعر بنو العباس خطورة التغلغل الفارسي في بلاط الحكم، فلجؤوا إلى أواســط آســيا لاســتيراد العنصر العســكري التركي من أجــل تحقيق التوازن العِرقي مع الفرس.

لقد عمد الخلفاء العباســيون إلى تقســيم الســلطة في بطانة الحكم إلى سلطة ثقافية لا بأس من التأثير الفارسي فيها، وسلطة عسكرية اســتجليوا لها مقاتِلين تُرْكًا، وهو التوازن الهجين الذي أسّــس لتفاهمات تركية-فارسية لتدبير شــؤون الحكم في مجموعة من المناسبات، ولذلك نجد العديد من الشــخصيات التركية في قلب مربع صناعة القــرار الإيراني، دون أن يؤثر ذلك على ولاء هؤلاء لإيران دولةً وعِرقًا ومؤسسات.

إننــا نعتقد بأن العداء التركي-الفارســي لكل مــا هو عربي يبقى مُعطًــى ثابتًا لا يحتاج إلى تدليــل أو بَيان، لكن الســؤال مرتبــط بالخلفيات التي أسّســت لهذا العــداء التاريخي والعقدي والسياســي، وهنا نقودنا الإحالة في مجال الإستراتيجية على مفاهيم "الإســتراتيجية الهجومية" و"الإستراتيجية الدفاعية".

في هذا الصــدد فإن ردة فعل الفرس تجاه العرب تدخل في نطاق الإســتراتيجية الدفاعية العكســية، على اعتبار أن الفرس يرون في العرب ســبب انهيار إمبراطوريتهم الساسانية، رغم أنها أخرجت أهل فارس من جاهلية عبادة الشــمس والنور والنار إلى توحيد الخالق الواحد الأحد.

لقد انتبه الفرس إلى أن مواجهة العرب خارج منظومة الشــرعية الدينية ســتكون مواجهة فاشــلة، ولذلك عمــلوا على تطويع النــص الديني من خــلال عملية اختراق مشــبوهة للمذهب الشــيعي، وتشويه نصوصه بما يخدم الأجندة العِرقية للفرس، وقد نجحوا في اختراق جزء مهم من المكــون العربي الذي انطلــت عليه "تقية" الانتصــار لـ"مظلومية آل البيــت"، فتحوَّل إلى حطب يُشعِل الدول ويفتت الأوطان، ويخرج على طاعة السلطان.

بالمقابل يرى الأتراك في فشــل "إســتراتيجيتهم الهجومية"، ومواصلــة احتلال للمنطقة العربية "فشــلًا حضاريًّا" قضى على أحلام الأتراك في اســتمرار إمبراطوريــة ممتَدَّة الأطراف تتبنَّى الإســلام ظاهرًا، وتفرض عقيدة عنصرية اســتعلائية باطنًا، ولذلك فإن العبارة الشاذة "متسخين.. هي أول كلمة تقابلك من أول شــخص تركي تســأله في اســتطلاع رأي تقوم به حــول: كيف يفكّر الأتراك في العرب؟".

لقد نجح الساســة الأتراك في رسم صورة نمطية حول كل ما هو عربي، حتى أصبح المواطن التركي العادي يرى في العربي رمزًا لعدم النظافة، والكســل، وقلة الذكاء، ولتعدد الزوجات، وســوء معاملــة الآخر، وبالتالي خلق حالة من الرفض العِرقي للعنصر العربي داخل تركيا، وهو ما يُفســر التعامل الاستعلائي للأتراك تجاه السياح العرب.

انطلاقًا مما ســبق يتبيَّــن أن المنطقة العربيــة ابتُلِيَت بما يمكن أن نطلــق عليه "لعنة الجغرافيــا"، وهي اللعنة التي زاد من تأثيرها غياب توجُّه عربي وَحْدَوي بالنظر إلى أن الدول العربية ليســت جميعها على قلب رجل واحد، بل تجد ولاء بعــض المكونات العربية للأتراك أو الفرس أكثر من ولائها لوطنها، وهو ما جعلها تتحوَّل إلى طابور خامس ينخر الجســد العربي الجريح.

المراجع:

1) حسين المصري، صلات بين العرب والفرس والترك.. دراسة تاريخية أدبية، القاهرة، 2001.

2) خالد البري "الترك والفرس ومماليك العرب"، مقالة نُشِــرَت على موقع سكاي نيوز عربية على الرابط: https://cutt.us/jHcGC

3) زبغنيو برجنسكي، رقعة الشطرنج الكبرى، ط2 (واشنطن: مركز الدراسات العسكرية، 1999).